المواقع العراقية في شعر صدر الإسلام
دراسة توثيقية في معجم البلدان لياقوت الحموي

د. بشرى محمد علي إسماعيل الخطيب
كلية الآداب – جامعة بغداد

حياته : [ياقوت الحموي]

ياقوت بن عبد الله الرومي، الحموي (أبو عبد الله شهاب الدين) مؤرخ أديبٌ ، شاعرٌ ، ناثرٌ ، لغويٌ ، نحويٌ ، عالم بتقويم البلدان[١] . ولد ببلاد الروم سنة ٥٧٥هـ مجهول الأب والبلد ، أيسر صغيراً وحُمل إلى بغداد حيث ابتاعه تاجرٌ حموي يسكن بغداد أسمه عسكر فسمّي بياقوت (الأسم الذي كانوا يطلقونه على الرقيق) ولما كان مجهول الأب سمي ياقوت بن عبد الله الرومي وألحق به الحموي دلالة على اسم مولاه لا لأنه وُلِد بحماة ، وكان عسكر تاجراً أمياً فدفع بياقوت إلى الكُتّاب فتعلم القراءة والكتابة وبعدها استعان به في ضبط تجارته ، ولما كبُر أنصرف إلى النحو واللغة .

واستمر ياقوت مساعداً لمولاه في تجارته وبدأ في الأسفار والتنقّل في كل الأرجاء ... إلى أن حصلت بينه وبين مولاه عسكر نبوةٌ فاعتقهُ وأبعدهُ عنه ... بعد ذلك انصرف إلى المطالعة والقراءة واشتغل بالنسخ بالأجرة ، ثم إنّ مولاه بعد مدة عطف عليه وأعطاه شيئاً وسفّرهُ إلى كيش ، ولما عاد كان مولاه قد مات فحصّل شيئاً مما كان في يده وأعطى أولاد مولاه وزوجتهُ ما أرضاهم به ، ثم استمرّ بالطواف في البلاد يحملُ إليها الكتب أو منها مطّلعا على موارد الثقافة الإسلامية مصاحباً العلماء ، وفي إحدى سفراته دخل حلب وألتقى وزيرها القفطي الشهير (سنة ٦٠٩هـ) وكان جماعاً للكتُب حريصاً عليها ثم استمرّ ياقوت بعد

ذلك بالسفر وتجارة الكتب إلى أن وصل غرباً إلى أربل حيث وجد أبا البركات المستوفي صاحب (تاريخ أربل) ثم تركها إلى الموصل حيث عانى الجوع والحاجة والفقر وأرسل بهذا رسالة إلى الوزير القفطي الذي لم يكن يميل إليه ومع ذلك فقد وجد الراحة والأمن في ظلّه ، وظلّ في حلب حتى مات في (٢ رمضان ٦٢٦ هـ) .

ثقافته .. شخصيته لم يتلقّها من أفواهِ الشيوخ وإنما أخذها مباشرةً من كتب العلماء بالمطالعات الطويلة المستمرة .

من تصانيفه : إرشاد الأريب في معرفة الأديب ، معجم البلدان ، معجم الأدباء ، وكتاب المشترك وضعاً المختلف صقعاً ، وكتاب معجم الشعراء ، والمقتضب في النسب ، وكتاب أخبار المتنبي ، وله شعر[٢] .

وقيل وفاته أوقف كتبهُ على مسجد الزيدي يدرب دينار ببغداد وسلمها إلى الشيخ عزّ الدين بن الأثير صاحب التاريخ الكبير[٣] .

وبعد موته كان الناس يثنون عليه ويذكرون فضله وأدبه كما يقول أبن خلكان[٤] ، ويمكن القول بأن (معجم البلدان) خير نتاج له يمثّل هذه الثقافة الواسعة المتنوعة المنظمة .

النصوص التي اختارها شاملة لكل العصور الأدبية ابتداء من عصر ما قبل الإسلام إلى العصر العباسي وقد جمعها بدقة وتمحيص بعد أن أطّلع على دواوين العرب والمحدثين وتواريخ أهل الأدب وسمع من أفواه الرواة . فجمع من ذلك مادة واسعة يستعين بها على إدراك مبتغاهُ .

والبحث هنا يتناول مختارات ياقوت من النصوص الشعرية في العراق ومدنه وإحداثه في العصر الراشدي في الفتوحات وحروب التحرير .

المواقع العراقية في شعر صدر الإسلام (دراسة توثيقية في معجم البلدان) :

في معجم البلدان لياقوت الحموي دراسة وافية لجغرافية العالم شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مقترنة بأبرز الأحداث والوقائع التي حصلت في تلك المدن وأشهر رجالاتها وعلمائها فضلاً عن نصوص مختارة من الشعر والنثر والأمثال والحكم يؤكد فيها ياقوت الحموي أسماء المدن والأحداث التي حصلت فيها مع ذكر الاختلافات في رواية تلك الأسماء وما يتبعها من تغيير أسماء الأمكنة والمدن فضلاً عن الأحداث التاريخية التي اقترنت بذكرها .

وهذا المعجم لياقوت يمثل نافذة عربية أصيلة مع جغرافية العالم ودور العلماء العرب في تلك المدن في كل مجالات العلم العلمية والإنسانية وما قدموه للإنسانية من علوم العرب وآدابها ولغتها ومعجم ياقوت جامع شامل للفنون الأدبية والبلاغية وعلم النحو والقراءات والتفاسير يمكن لطالب العلم والمعرفة أن ينهل منها ما يشاء .

وهذا البحث يشتمل على مختارات ياقوت من النصوص الشعرية التي قيلت في العصر الإسلامي ضمن خريطة العراق الجغرافية ، وتأتي تلك الاختيارات أثناء تعريفه بجغرافية المدن التي يمرّ بها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، وهي دراسة منظمة وافية مرتبة على وفق الحروف الأبجدية .

وقد اقتضت هذه الدراسة الإطلاع على معجم ياقوت بشكل تفصيلي دقيق ومركّز لمعرفة مدن العراق التي يعرّف بها صاحب المعجم وأسمائها وحركاتها وحدودها الجغرافية التي تميّزها وتفصلها عن مدن العالم العربي الأخرى .

وفي تفصيل جغرافية العراق يتوقف ياقوت ليرسم حدود أرضه ومدنه ومياهه فضلاً عن حرارته وبرودته ثم طبيعة أهله وعاداتهم وتقاليدهم وما حصل في مدنه من أحداث وحروب بعضها يأتي على السياق ، وبعضها لإثبات صحة

المكان قيد الدراسة أو لتأكيد واقعة حصلت فيه ، فيقول مثلاً : (والعراق هي بابل كما تقدم والعراق أعدلُ أرض الله هواءً وأصحها مزاجاً ، فلذلك كان أهل العراق هم أهلُ العقول الصحيحة والآراء الراجحة والشمائل الظريفة والبراعة في كلّ صناعة مع اعتدال الأعضاء واستواء الأخلاط وسمرة الألوان..)[٥] .

وفي طبيعة أرضه يقول : (العراقُ شاطئ البحر ، وسُميّ العرقُ عراقاً لأنه على شاطئ دجلة والفرات مدّاً حتى يتصل بالبحر على طوله)[٦] .

وبحثنا هنا يعني بمختارات ياقوت من النصوص الشعرية التي أوردها أثناء بحثه جغرافية العراق ومدنه والتي تشتمل على ما قيل من شعر في العصر الإسلامي بشكل عام وعصر الخلفاء الراشدين في الفتوحات الإسلامية وحروب التحرير بشكل خاص ..[٧] .

ولاشكّ أن تلك النصوص خضعت في اختيارها لطبيعة الموقع الجغرافي وما حصل فيه من أحداث وحروب وثّقتها المصادر التاريخية بزمانها ومكانها ورجالاتها وأبطالها ، وهي بهذا نصوص أدبية تاريخية جغرافية .

وتطالعنا نصوص متنوعة في عصر صدر الإسلام والخلفاء الراشدين في الفتوحات الإسلامية التي يسوقُ صاحب المعجم بعضاً من أخبارها وأحداثها بشكل موجز وهو يحدد موقعاً جغرافياً في العراق موضحاً في النهاية الغرض من النص وهو إما الفخر بالنصر على أعداء الإسلام من فرس وروم أو الحماسة والأقدام لمواصلة الجهاد والقتال لينتهي إلى رثاء الشهداء المجاهدين في سبيل الله وهجاء أعداء العروبة والإسلام والتهديد بالنيل منهم والقضاء عليهم سلاحهم في ذلك الإيمان بالله والعقيدة الراسخة .

ولا تخرج مختارات ياقوت في عصر الرسالة والخلفاء الراشدين عند تعريفه بجغرافية العراق عن تلك الأغراض الجهادية لأنّ ظروف البلد أي العراق ومدنه كانت هدفاً لحروب التحرير ومنطلقاً للفتوحات شرقاً وغرباً ، وهذا يعني

اقتران ذكر النص المختار بالمكان المقصود والحدث الذي انبثق منه ذلك النص أو الذكريات التي أثارها ذلك المكان في نفوس المجاهدين ثم حنينهم إلى أوطانهم التي خرجوا منها مجاهدين في سبيل الله ونشر الإسلام ورفع رايته أو الموت والاستشهاد في سبيله .

ونلاحظ أنه عند مروره بجغرافية تلك المدن العراقية كان يُعنى بشكل واضح بتجديد موضعها في العراق كما يُعنى بضبط أسمائها بشكل دقيق بالحركات فيقول مثلاً في منطقة (الثَّني) أنها تقرأ (بكسر وسكون وياء مخففة) وهو كما يقول : (أسمٌ لكل منعطف جبل أو نهر قُرب البصرة مشهورة ويوم الثَّني لخالد بن الوليد على الفرس وفيه قال القعقاع بن عمرو ثم يذكر الأبيات وهي لا تخرج عن غرضي الرثاء والفخر والحماسة المناسبين للحدث الحربي مثل قوله :

سقى الله قتلى بالعراق مقيمة　　وأخرى بأثباج النجاف الكوانف
فنحن وطئنا بالكواظم هُرمزاً　　وبالثَّني مرثي قارن بالجوارف(٨)

أما (الثَّنيّ) (بفتح ثم كسر وياء مشددة) فهو كما يقول :

(علم موضع بالجزيرة قرب الشرقيّ شرقي الرصافة تجمعت فيه بنو تغلب وبن جبير لحرب خالد بن الوليد (رضي الله عنه) فأوقع بهم (بالثنيّ) وقتلهم كلّ قتلة في سنة (١٢ هـ) في أيام أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) فقال أبو مقرر مفتخراً :

طرقنا بالثنيّ بني بجير　　بياتاً قبل تصديقة الديوك
فلم نتركْ بها إرماً وعجماً　　مع النَّصر المؤزر بالسّهوك(٩)

ويظهر أن اختلاف حركات اسم المكان الواحد عن غيره كان يعني تبايناً في موقع المكان والأحداث والأبطال فضلاً عن النصوص التي قيلت في ذلك

المكان ، وهذا الاختلاف الذي عني به ياقوت ووثقه كان له أثرٌ في مختاراته من النصوص كما مرّ بنا أعلاه[١٠] .

وعلى هذا المنوال نجد دراسات ياقوت لجغرافية أي مكان جامعة شاملة دقيقة بلفظها ومعناها تتخلّلها نصوصٌ مناسبة للأحداث التي حصلت فيها ، أو قد تكون نصوصاً لا علاقة لها بالحدث الحربي أو التاريخي ، وإنما هي ذكريات لمغامرات اقترن ذكرُها بذلك الموقع الجغرافي يأتي ذكرها استطراداً بعد النص الحربي كما نقرأ ذلك في الحديث عن جغرافية (فراض)[١١] فيقول :

لما قصد خالد بن الوليد بغتة بني غالب إلى الفراض اجتمعت عليه الروم والعربُ والفرس فأوقع بهم وقعةً عظيمة ، قُتل فيها مائة ألف ، ثم رجع خالد لعشربقين من ذي الحجّة سنة ١٢ هـ فقال القعقاع في ذلك :

لقينا بالفراض جموع رُوم　　وفُرْس غمّها طولُ السّلام
أبدْنا جمعهم لما التقينا　　وبيّتْنا بجمع بني رزام
فما فتئتْ جنودُ السّلْد حتى　　رأينا القوم كالغنم السّوام[١٢]

والنص يمثل فخراً بالنصر على أعداء العرب من فرس وروم ومن تحالف معهم من العرب ، كما يروي بإيجاز الحدث الحربي ومكانه ونتائجه بأسلوب وصفي تقريري مشبهاً حال الأعداء الخاسرين بالغنم السوام ، وهذا الأسلوب في النصوص الحربية المختارة هو الغالب مع جميع النصوص التي قيلت في حروب التحرير والفتوحات ثم ينتقل ياقوت إلى نصّ آخر أثارهُ ذكر الفراض يتضمن قصة عاطفية مع نص فيه حنين وحسرة وغزل قائلاً : (وفي ذكر الفراض خبرٌ استحسنْتُه فأثبتّه ههنا)[١٣] ثم يسرد ياقوت ذلك الخبر بتفصيل دقيق يذكر فيه قصة شيخ كبير يُدعى أبو شافع كان متزوجاً من فتاة شابة قوية مكثت عنده حيناً ثم دبّ إليها بعض الغواة محاولاً إغواءها ولكنها زجرته ونهرتْه بشدّة قائلة إنها إن ملكت أمر نفسها يوماً فستكون له ، وقد استطاع ذلك الرجل التحايل على

زوجها (أبي شافع) مُقدّماً له عشرين من الإبل رهاناً إن هي اختارته (أي اختارت زوجها) وقد وافق أبو شافع على الرهان بكل ثقة واطمئنان وعندما سألها زوجها أبو شافع اختارت نفسها وحريتها وبهذا خسر زوجته ورهانه وحياته العائلية فقال متحسراً :

حننْتَ ولم تحنن أوان حنينِ　　وقلبْت نحو الركب طرف حزينِ
جرى بيننا الواشون يا أمّ شافعٍ　　ففاضتْ دماً بعد الدّموع شؤوني
كأن لم يكنْ منها الفراضُ محلّةً　　ولم يمس يوما مُلكُها بيميني
فلا يثقنْ بعدي أمروٌ بملاطفٍ　　فما كلُّ من لاطفتَهُ بأمينِ
وما زادني الواشون يا أمّ شافعٍ　　بكُم وتراخي الدار غيرَ حنينِ[١٤]

وعلى الرغم من الأفتعال الواضح للرواية إلا أن ياقوت أوردها هنا ليبرر اختيارهُ لهذا النص الوجداني الرقيق .

وقد يكون النصُّ المختارُ لغرض الطرافة ودفع الرتابة والملل كما نقرأ ما اختاره في منطقة كربلاء التي شهدت مصرع الحسين بن علي (ﷺ) فقد أورد ياقوت نصاً في رثائه قالته زوجته عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نُفيل[١٥] وبعد نص الرثاء أورد نصاً طريفاً في الشكوى من كثرة الذبان في كربلاء التي نزلها خالد بن الوليد عند فتحه الحيرة فقال رجلٌ من أشجع في ذلك[١٦] :

لقد خُبِستُ في كربلاء مطيّتي　　وفي العين حتى عاد غثّاً سمينُها
إذا رحلتْ من منزلٍ رجعتْ لهُ　　لعمري وأيها إنني لأهينُها
ويمنعُها من ماءِ كلّ شريعةٍ　　رفاقٌ من الذّبان زُرقٌ عيونُها

ولعل هذا التنويع في النصوص المختارة هدفهُ كما قلنا الفائدة والمتعة والطرافة . وقد يكتفي ياقوت في اختياراته بالنص الحربي فقط الذي يمكن عدّه

نصاً توثيقاً لذلك اليوم كما نقرأ لأبي محجن الثقفي وهو يسرد ما جرى له في غزوة أليس الآخرة وكان قد حضر هذا اليوم وأبلى بلاءً حسناً فقال من قصيدة :

وما رُمْتُ حتى خرّقُوا برماحِهم　　ثيابي وجادتْ بالدّماء الأباجلُ
وحتى رأيتُ مُهرتي مُزبئرةً　　من النّبْل يُرمى نحرُها والشواكلُ
وما رُحْتُ حتى كُنْتُ آخر رائحٍ　　وخُرّج حولي الصالحون الأماثلُ[١٧]

والنص كما نرى يصور ما حدث في ذلك اليوم بأسلوب أقرب إلى السرد القصصي لذلك الحدث الحربي مبتعداً عن الصياغة الفنية مع الاعتناء بذكر القتلى والجرحى ، ولهذا يمكن عدّ مثل هذه النصوص مصادر مهمة لدراسة أحداث تلك المرحلة ، مع ملاحظة أنه في اختياراته يعتمد الحقائق والوقائع الحربية والتاريخية كما حصلت فيذكر الخسارة كما يذكر النصر كما في يوم الجسْر (بكسر الجيم) وهو موضع على الفرات وفيه كانت الوقعة بين المسلمين والفرس قرب الحيرة سنة (١٣ هـ) وقد أوقع الفرس بالمسلمين ونكّلوا بهم تنكيلاً شديداً وقتل قائدهم أبو عبيد بن مسعود الثقفي وفي ذلك اليوم قال حسان بن ثابت :

لقد عظمت فينا الرزيةُ إنها　　جلاّ على ريب الحوادث والدّهر
على الجسْر قتلى لهف نفسي عليهم　　فيا حسرتا ماذا لقينا من الجسر[١٨]

وفي منطقة صفين قرب الرقّة بشاطئ الفرات حيث حدثت الوقعة بين معاوية والإمام علي (ع) سنة (٣٧ هـ) واستمرت عشرة أيام وفيها تسعون وقعة ، أكثرت الشعراء كما يقول ياقوت من وصف صفّين في أشعارهم من ذلك قول كعب بن جُعيل يرثي عبيد الله بن عمر بن الخطاب الذي قتل بصفين :

إلا أنما تبكي العيونُ لفارس　　بصفّين أجلتْ خيلُه وهو واقفُ
فأضحى عُبيد الله بالقاع مسلماً　　تمجُّ دماً فيه العروقُ النّوازفُ
جزى الله قتلانا بصفّين ما جزى　　عباداً له إذ غودروا في المزالفُ[١٩]

وقد يأتي ياقوت بالنّص المختار بشكل مباشر بعد تحديد مكانه وضبط حركاته مجرّداً من ذكر أحداث حربية أو وصف معركة ، لأنّ الموضع قيد الدراسة لم تحصل فيه معركة كما في منطقة (حُلوان) وتقع في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد ، يقول ياقوت عنها :

إنها مدينة عامرة ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط وبغداد أكبر منها فتحها جرير بن عبد الله البجلي سنة ١٩ هـ صلحاً على أن كفّ عنهم وآمنهم على ديارهم وأموالهم ، ثم يذكر نصّاً للقعقاع بن عمرو في ذلك :

وهل تذكرون إذ نزلنا وأنتم　　منازل كسرى والأمور حوائل
فصرنا لكم ردءاً بحلوان بعدما　　نزلنا جميعاً والجميع نوازل
فنحنُ الأُلى فزنا بُحلوان بعدما　　أرنّت على كسرى الأماءُ الحلائل[٢٠]

وقد يبتعد ياقوت في اختياراته عن أجواء الحرب والسلم ليعود إلى الأجواء الإنسانية ومشاعر المجاهدين في تلك الديار البعيدة فيختار نصّاً في الحنين قاله أعرابي وهو في حلوان :

تلفّتُّ من حُلوان والدمعُ غالبٌ　　إلى روض نجد أين حُلوان من نجد
لحصباءِ نجد حين يضربُها الندى　　ألذّ وأشفى للغليل من الوردِ
ألا ليت شعري هل أناسٌ بكيتهم　　لفقدهمُ هل يبكينّهمُ فقدي
أداوي ببرد الماء حرّ صبابةً　　وما للحشاء القلب غيرك من برد[٢١]

وقد تنعكس الآية فيذكّرُ الحديث عن جغرافية مكان ما ينص في الهجاء فيختار في معجمه كما في منطقة جَدال[٢٢] فيقول : (قال رجلٌ من بني هبي من النمرين قاسط يُقال له دثار يهجو رجلاً من بني زبيد يُقال له خالد :

أيا جبلي سنجار هلاّ دققتما　　بركنيكما أنف الزّبيديّ أجمعا
لعمرك ما جاءتْ زُبيد لهجرةٍ　　ولكنّها جاءت أرامِلُ جُوّعا

وتتضح روح السخرية في هذا الهجاء ولعلها كانت الدافع إلى إعجاب ياقوت بالنص وتسجيله في معجمه ..

وهكذا نجد أن مختارات ياقوت متنوعة الأغراض تمثل الأغراض الجهادية من حماسة وفخر ووصف المعارك ورثاء الشهداء والحنين إلى الوطن والأهل هذا فضلاً عن بعض الأغراض الثانوية الأخرى من مدح وهجاء وغزل والتي مرت بنا بعض نماذجها أعلاه ..

ومن نصوص ياقوت المختارة في عصر الفتوحات ما يجمع بين غرضين أو أكثر مثل الحنين ووصف المعركة ثم الفخر بالنصر على أعداء الإسلام من فرس وروم كما نقرأ لبشر بن ربيعة في معركة القادسية[٢٣] التي حدثت (سنة ١٦ هـ) وقد بدأها بالحنين فقال :

ألمّ خيالٌ من أميمة موهناً　　وقد جعلت أولى النجوم تغورُ
ونحن بصحراء العذيب ودوننا　　حجازية إنّ المحلّ شطيرُ
وحلّت بباب القادسية ناقتي　　وسعدُ بن وقّاص عليّ أميرُ

ثم ينتقل إلى وصف المعركة فيقول :

تذكّر هداك الله وقع سيوفنا　　بباب قديس والمكرُ عسيرُ
عشيّة ودّ القومُ لو أنّ بعضهم　　يُعارُ جناحي طائر فيطيرُ
إذا برزتْ منهم إلينا كتيبةٌ　　أتونا بأخرى كالجبال تمورُ

ثم ينتقل إلى الفخر بنفسه وشجاعته وفروسيته ذاكراً بعض شهداء ذلك اليوم بأسمائهم فيقول :

فضاربتهم حتى تفرق جمعُهم　　وطاعنتُ إني بالطعان مهيرُ
وعمرو أبو ثورٍ شهيدٌ وهاشم　　وقيسٌ ونُعمانُ الفتى وجريرُ[٢٤]

ونلاحظ أن الحنين هنا حلّ محل الغزل في افتتاح قصائد الحرب والجهاد[٢٥] ولاشك أن وجود المقاتلين في أرض بعيدة عن أهلهم وأحبائهم وإحساسهم بالغربة ولوعة الفراق كانت بواعث أساسية في الافتتاح بالحنين .. أما وصف المعركة والفخر بالصمود والنصر فقد كانت أغراضاً ملازمة لعشر الفتوح في ذلك العصر[٢٦] .

وفي الجميع بين المقدمة الغزلية وغرضي الفخر والحماسة ووصف المعركة يختار ياقوت نصّاً لعبدة بن الطبيب في بحثه جغرافية المدائن[٢٧] يبدأه بالغزل فيقول :

هل حبلُ خولةَ بعد الهجر موصولُ　　أم أنت عنها بعيدُ الدار مشغولُ
وللأحبّة أيامٌ تذكّرها　　وللنّوى قبل يوم السن تأويلُ

ثم ينتقل إلى وصف المعركة فيقول :

حلّتْ خويلةُ في دارٍ جاورةٍ　　أهل المدائن فيها الديك والنيلُ
يقارعون رؤوس العجم ضاحيةً　　منهم فوارسُ لا عُزّلٌ ولا ميلُ[٢٨]

ومختارات ياقوت من النصوص الحربية الجهادية بما تحويه من أحداث بزمانها ومكانها تعدّ سجلاً تاريخياً معتمداً في دراسة تلك المرحلة ، فضلاً عن المعاني الإنسانية الرائعة التي تتضمنها كما في غرضي الرثاء والحنين ، بما يحويانه من وجيعة وحزن لفراق الأهل والأحبّة وهم في غربتهم الجهادية ، أو بكاء المجاهدين الذين استشهدوا في تلك الحروب والذين يعدّ استشهادهم مصدر فخر واعتزاز بالصمود والبطولة لهم ولأخوانهم الذين يتمنون اللحاق بهم في جنات الخلد في عليين ، وقد تتضمن وصفاً لتلك المعارك البطولية بما فيها من نصر وهزيمة وكرّ وفرّ وإقدام وإحجام والتي وقعت بين أولئك المجاهدين الأبطال

من العرب الفاتحين المحررين وبين أعدائهم من الفرس والروم ومن أنضمّ إليهم من بعض القبائل العربية المتحالفة معهم في ذلك الحين[٢٩] .

وفي هذا المجال نقرأ ما اختاره ياقوت في منطقة (الخنافس)[٣٠] نصّين إحدهما يمثّل هزيمة للعرب والآخر نصراً لهم وفي الخسارة أوقع فيه بالمسلمين في أيام أبي بكر (ﷺ) وكان أميرهم من قبل خالد بن الوليد ، أبو ليلى بن فدكي فقال في تلك الخسارة :

وقالوا ما تُريدُ فقلتُ أرمي　　جموعاً بالخنافس بالخيول
فدونكم الخيول فألجموها　　إلى قوم بأسفل ذي أثُول
فلما أن أحسّوا ما تولّوا　　ولم يغْررْهُمْ ضَبْخُ الفيول
وفينا بالخنافس باقياتٌ　　لمهبوذان في جنْح الأصيل[٣١]

ونلاحظ اعتماد النص المختار على سرد واقعة الخسارة مع خلّوه من الصياغة الفنية لاهتمام ياقوت بالواقعة التاريخية نفسها وخسارة المسلمين فيها وقد تلاهُ بنصّ آخر في المكان نفسه يمثّل انتصاراً للمسلمين يقول فيه ياقوت (ثم كانت بها وقعةٌ أخرى في أيام عمر بن الخطاب (ﷺ) وإمارة المثنى بن حارثة كبسهم يوم سوقهم وقتلهم وأخذ أموالهم فقال المثنى في ذلك :

صبحنا بالخنافس جمع بكْر　　وحيّاً من قضاعة غير عيل
بفتيان الوغى من كلّ حيٍّ　　تباري في الحوادث كلّ جيل
نسقْنا سوقهمْ والخيلُ روْدٌ　　من التطواف والشّرب البخيلِ[٣٢]

وتتجلى روح الحماس والفخر بالنصر على جموع بكر وقضاعة المنهزمة على الرغم من شجاعة فرسانها وثباتهم في المعارك ولكن فرسان الجهاد هزموهم في منطقة الخنافس نفسها ، كما يتجلى إبداع التعبير شعراً في الجمع

بين تسلسل الحدث وخفة الوزن على الرغم من أنّ القائل محارب في جيش المسلمين وشعره جاء عفوياً .

ومما تجدر الإشارة إليه أن ياقوت لم يكن في اختياراته لتلك النصوص مقيداً أو محدداً بغرض معيّن أو ملتزما طائفة أو فرقة إسلامية يدعو لها[٣٣]. كما لم يكن يمثّل تياراً أدبياً نقدياً واضحاً وإنما كان جلّ هدفه تحديد المكان ومركزه وتصويب حركاته وحروفه وذكر الاختلاف في روايته ، فضلاً عن وروده في الشعر بصيغه المختلفة ، وكذلك في الأحداث والأغراض على وفق تلك الصيغ وبهذا تكون فائدته شمولية جامعة لكلّ تلك الصيغ الفنية والأغراض[٣٤] .

فمثلاً نقرأ له من مختاراته التي جمعت بين الفائدة الجغرافية والتاريخية فضلاً عن اللغوية والأدبية ما ورد ضمن منطقتي قراقر وسوى[٣٥] . يشير فيه إلى حادثة تاريخية في العصر الراشدي سنة ١٢ هـ في زمن الفتوحات عندما أراد القائد خالد بن الوليد الانتقال من العراق إلى الشام فاستعان بدليله رافع بن عمير الطيئي وكان أرمداً فدلّه على أقصر الطرق وفيه قيل :

لله درُّ رافعٍ أنّى اهتدى　　خمساً إذا ما سارها الجيش بكى
ما سارها من قبله إنسٌ يُرى　　فوزّ من قُراقرٍ إلى سوى

وقد أورد ياقوت النص بروايتين مختلفتين في منطقتي قُراقر وسُوى[٣٦] .

ولأجل توثيق موضع جغرافي يختار ياقوت مجموعة من النصوص في أغراض مختلفة كما في منطقة سيلحون التي ذكر في دراسة جغرافيتها ستة نصوص بدأها بنص في الغزل لسليمان بن ثمامة ذكر فيه قصة رحيل الحبيبة من اليمامة إلى الكوفة مارّةً بخمسة أماكن بدءاً بالقادسية ثم سيلحون ثم الخورنق.. حتى انتهى بها المطافُ إلى أرض الجهاد المباركة حيث استقر بها النوى كما يقول :

فمرّت بباب القادسية غُـــدوةً　　وراحتُهـــا بالسيلحيـــن العبائـــرْ
فلما انتهت دون الخورنق عادَها　　مباركةً والأرض فيهـا مصائـــرْ
فألقتْ عصاها واستقرّ بها النّوى　　كما قرّ عيناً بالإيـــابِ المسافرُ[٣٧]

ويظهر أن كثرة الأماكن التي مرّت بها امرأتهُ في رحلتها من اليمامة إلى الكوفة دليلٌ على بعدها الشاسع عنهُ أولاً وتوثيق موضع (سيلحون) جغرافياً ثانياً بدليل قوله : (فهذا يدلُّ على أنّ السيلحون بين الكوفة والقادسية)[٣٨] .

ولا يكتفي ياقوت بنص الغزل ورحيل امرأته وإنما يأتي بنصٍّ آخر لشاعر مجاهد شهد الحيرة والقادسية فعقرتْ ناقتُه فقال مفتخراً[٣٩] ومثله نص لعمـرو بن الأهتم في هجاء قومه :

ما في بني الأهتم من طائـــل　　يُرجى ولا خير به يصلحـــون
لولا دفاعي كنتـم أعبُـــداً　　مسكنُهـا الحيـــرةُ والسيلحـون[٤٠]

... أربعة أبيات ... واضحٌ أن النص السابق يشير إلى جغرافية المكـان ويوثقها وهو الهدف الأساس من إيراده هنا وبعدهُ نص آخر للنابغة الجعدي فيه ذكر لتاريخ الملوك الذين حكموا في (السيلحون) والذين ملكوا الخورنق والسدير.

وفي النهاية يأتي بنص للأعشى في الحكمة والموعظة وهكذا أصبح عدد النصوص ضمن منطقة سيلحون ستة متنوعة الأغراض ومختلفة العصور[٤١].

وقد ظهر للبحث أن كثرة الاستشهاد بالنصوص في عرض جغرافية المدن ليست قاعدة ثابتة أو سارية في معجم ياقوت الجغرافي حيثُ نجدهُ أحياناً يفصّل في جغرافية مكان ما ويستغرق الصفحات ولا يستشهد إلا بنصوص قليلة كما في دراسته لجغرافية الحيرة[٤٢] أو يهمل ذكر النصوص تماماً كمـا فـي جغرافيـة بابل[٤٣] .

وقد تدفعه جغرافية المكان إلى ذكر أخبار طريفة عنه فضلاً عن النصوص الشعرية المختارة ، ونقرأ ذلك في عرضه لجغرافية ميسان التي فتحت في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وكان قد ولاّها النّعمان بن عدي أحد مهاجرة الحبشة وقد طلب النعمان من زوجته الخروج معه إلى ميسان فأبت عليه فكتب إليها أبياتاً حاول فيها إثارة غيرتها لتلحق به إلى ميسان وتكونَ بجواره :

الا هل أتى الحسناء أنّ حليلَها　　بميسان يُسعى في زُجاجٍ وخَتَمِ
إذا شُئت غنّتني دهاقينُ قريةٍ　　وصنّاجةٌ تحثو على حرف منسجم
فإن كنت ندماني فبالأكبر أسقى　　ولا تسقني بالأصغر المتثلّمِ
لعلّ أمير المؤمنين يسوءُهُ　　تناذُ منا في الجوسقِ المتهدّم[٤٤]

فبلغ ذلك الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فكتب إليه : ((بسم الله الرحمن الرحيم ، حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم ، غافر الذنب قابل التّوب شديد العقاب ذي الطّول لا إله إلا هو)) – أما بعد فقد بلغني قولك (لعلّ أمير المؤمنين .... الخ وأيم الله لقد ساءني ذلك وقد عزلتك ، فلما قدم عليه قال له: والله ما كان من ذلك شيء ، وما كان إلا فضلٌ من شعر وجدتُه وما شربتُها قط.. فقال عمر (رضي الله عنه) : أظنّ ذلك ولكن لا تعمل لي عملاً أبداً)[٤٥] .

وأخيراً لابد من القول بأن تلك النصوص المختارة ضمن جغرافية العراق ومدنه وإحداثه لا تمثّل إلا ما قيل في العراق ومدنه وما حصل فيها من أحداث في مرحلة محددة هي الفتوحات الإسلامية في العصر الراشدي والتي جاءت على لسان الشعراء المجاهدين من المخضرمين مثل عمرو بن معد يكرب وعبده بن الطبيب وأبي محجن الثقفي وحسان بن ثابت أو شعراء مجاهدين أنطقتهم الفتوح[٤٦] مثل القعقاع بن عمرو ، وعاصم بن عمرو ، والمثنى بن حارثة الشيباني .. الخ .

وقد وجدنا أن أغلب تلك النصوص المختارة في العراق حربية لا تخرج عن أغراض الحماسة والفخر ووصف المعركة والرثاء للشهداء والحنين وتلك الأغراض مرتبطة في اختيارها بجغرافية الموقع أولاً والحدث الحربي ثانياً ، كما وجدنا أن تلك النصوص المختارة كانت تتعدد بتغير رواية الاسم الجغرافية واختلاف حركاته كما أنها (أي النصوص) تتعدد بكثرة الأحداث والوقائع التي حصلت في المكان المدروس كما مرّ بنا في منطقة الخنافس ، كما تتعدد رواية النص الواحد وتختلف باختلاف المكان والحدث مثل (قراقر ، سنوى)[٤٧] .

وقد يستدعي ذكر المكان رواية قصة طريفة حصلت فيه كما في (ميسان) في زمن الخليفة عمر بن الخطاب (ﷺ) ، أو في منطقة (الغراض) كما مرّ بنا في صفحات سابقة[٤٨] .

وقد تتنوع النصوص المختارة ويتعدد قائلوها في المكان الواحد وتختلف عصورهم وتتباين الأحداث التي دفعتهم للقول ، فيجمع ياقوت بين نص جاهلي . وإسلامي ، وأموي ، وعباسي في أغراض مختلفة من حماسة وفخر إلى رثاء وغزل وحنين أو مدح وهجاء ... الخ .

أما الغزل في مختارات ياقوت فيعتمد على ذوقه الفني والموقع والحدث ويأتي مع ذلك بكثرة ضمن أغلب النصوص المختارة .

الهوامش :

١. ينظر معجم المؤلفين ١٣/١٧٨ ، ١٧٩ ، معجم الأدباء ١/٢٢ ، أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ٦٣-٧٢ ، ٨٩ وفيات الأعيان ٦/١٢٧.

٢. ينظر أعلام التاريخ والجغرافيا ٧٣-٧٦ .

٣. ينظر معجم الأدباء ١/٢٢ ، وفيات الأعيان ٦-١٢٧-١٣٨ ، أعلام التاريخ والجغرافيا، ص٧٢ ، ٧٣، ٧٦ ، معجم المؤلفين ١٣-١٧٨-١٧٩ .

٤. وفيات الأعيان ٦/ص١٢٧-١٣٨ .

٥. معجم البلدان ٣/٩٥ .

٦. م.ن ٣/٩٣ .

٧. مختارات ياقوت كانت متنوعة الأغراض شاملة لكل العصور الأدبية ابتداء من العصر الجاهلي والإسلامي والأموي وانتهاء بالعصر العباسي والدراسة هنا تركز على مختاراته من العصر الراشدي فقط.

٨. ينظر معجم البلدان ٢/٨٦ ، تاريخ الطبري ٣/٣٦٥ الخبر والنص مع خلاف شعراء إسلاميون ٤٢ شعر الفتوح الإسلامية ١٢٨ الخبر والنص.

٩. ينظر معجم البلدان ٢/٨٦ ، الطبري ٣/٣٨٢ الخبر بتفصيلاً .

١٠. وفي اختلاف المكان أيضاً باختلاف حركاته ينظر (ج٥/١٣٣) المشرّف بفتح الراء هو سوق بالطائف ويقال هو مسجد بالحنيف والنص المختار لأبي ذؤيب الهذلي في رثاء أبنائه الخمسة . (والمشرّق) بكسر الراء واد دُفن فيه شهداء يوم القادسية من المسلمين والنص لشاعر في رثائهم.

١١. فراض بكسر أوله وآخره ضاد مُعجمة جمع الفُرضة وهي (الثلمةُ في النهر) والفراض : موضع بين البصرة واليمامة، أو تحوم الشام والعراق والجزيرة في شرقي الفرات ، معجم البلدان ٤/٢٤٣ .

١٢. ينظر معجم البلدان ٤/٢٤٣-٢٤٤ والخبر مفصلاً في تاريخ الطبري ٣/٣٨٣، ج٣/٣٦٥ . النص في الطبري مع اختلاف وينظر أيضاً شعراء إسلاميون ص٤١ .

١٣. معجم البلدان ج٤/٢٤٤ ، وينظر أيضاً في تنوع اختيارات ياقوت ج٤/٢٩١ (القادسية) حيث جمع بين النص الحربي والفخر والحماسة ثم الحنين إلى الأهل والأحبة، وينظر أيضاً ج٢/٢٩١ (حُلوان) وفيه نصوص في الفخر بالنصر سلماً ، ونص في الحنين ، وينظر أيضاً ٥/٢٤٣ (ميسان) وفيه نص في الحنين والغزل قيل في العهد الراشدي وبعده نصوص في الرثاء والهجاء الساخر قيلت في العصر الأموي .

١٤. ينظر معجم البلدان ٤/٢٤٤ .

١٥. نفسه ٤/٤٤٥ .

١٦. معجم البلدان ٤/٤٤٥ يقول ياقوت : (نزل خالد بن الوليد عند فتحه الحيرة كربلاء فشكا إليه عبد الله بن وثيمة البصري الذبان) . شعر الفتوح الإسلامية ص٢٦٠ (يشكو الشاعر هنا فن الذباب الذي يؤذي ناقته . ويردها عن الماء في كربلاء عند إلتقاء كتيبة خالد بجند عياض بن غنم) النص في الطبري ج٣/٣٧٣ مع خلاف .

١٧. معجم البلدان ١/٢٤٨ (أليس مصغر بوزن فُلَيس) الموضع الذي كانت فيه الوقعة بين المسلمين والفرس في أول أرض العراق من ناحية البادية وهي قرية من قرى الأنبار . والنص في ديوان أبي محجن الثقفي ص٣٠ مع خلاف ، وفي الطبري ٣/٣٥٥-٣٥٨ ، ومثل في الاكتفاء بالنص الحربي اختار ياقوت لعاصم بن عمرو في منطقة الملطاط وهي قرب الكوفة في أيام خالد بن الوليد لما فتح السواد وملك الحيرة .

جلبنا الخيل والأبل المهارى　　إلى الأعراض أعراض السواد

شحنّا جانب الملطاط منا　　بجمع لا يزول عن البعاد

لنأتي معشراً ألبّوا علينا　　إلى الأنبار أنبار العباد

معجم البلدان ١٩٢/٥ ، شعراء إسلاميون ص٥٩ مع اختلاف ومثله أيضاً ما قيل في (النمارق) وهو موقع قرب الكوفة نزله عسكر المسلمين في أول وسودهم العراق فقال المثنى بن حارثة الشيباني في وصف المعركة مفتخراً بشجاعة المسلمين ج٣٠٤/٥ .

١٨. ينظر معجم البلدان ١٤٠/٢ تاريخ الطبري خبر هذا اليوم ٤٥٤/٣-٤٥٩، ديوانه ص٢٤٢ معخلاف .

١٩. معجم البلدان ٤١٥/٣ ، الطبري ٣٧/٥ (النص مع خلاف) ، وفي الاكتفاء بالنص الحربي ينظر ما قيل في جلولاء التي كانت فيها الوقعة المشهورة على الفرس سنة ١٦هـ وقد قتل من الفرس مائة ألف فسميت جلولاء لما جلّلها من قتلاهم فهي جلولاء الوقيقة فقال القعقاع مفتخراً :

ونحن قتلنا في جلولاء أثابراً　　ومهران إذ عزّت عليه المذاهبُ

ينظر (معجم البلدن ١٥٦/٢ . الطبري ٣٣/٤، ٣٤ ، شعراء إسلاميون ص٢٩٠ وينظر أيضاً ج٢٦٦/٢ (الحصيد) موضع في أطراف العراق أوقع به القعقاع بن عمرو بالفرس سنة ١٣ هـ وقعة منكرة فقال مفتخراً بذلك النصر .

الطبري ٣٨٠/٣ شعراء إسلاميون ٤٨ ، ٤٩ .

٢٠. معجم البلدان ٢٩٠/٢ ، شعراء إسلاميون ص٤٤ مع خلاف .

٢١. معجم البلدان ٢٩١/٢ .

ومثله في اختيار النص المجرد من واقعة حربية ما اختاره في منطقة (زورة) لشاعر جاهلي هو عدي بن زيد في مدح قوم من نصارى أهل الحيرة :

كأن لم يكن يومٌ بزورة صالح　　وبالقصر ظلٌّ دائمٌ وصديق

وقد ورد النص الأول من بيت عدي السابق في معجم ياقوت ٣٦٤/٤ في جغرافية (قصر مقاتل) :

كأن لم يكن بالقصر قصـــر مقاتـــلٍ وزورة ظلّ ناعـــمٌ وصديـــــق

يفتح زورة ، وقد جاء الاستشهاد بالنص الجاهلي لا تناقـــه مـــع الفكـــرة أعلاه، ولأنها أكثر وضوحا وظهوراً فيه .

٢٢. جدال بالضم وآخره لام وهي قرية كبيرة عامرة على كل عالٍ وعندها خانّ حسن عامر ، وأهلها نصارى بينها وبين الموصل مرحلتان ولها ذكرٌ في الشر القديم ، أنظر معجم البلدان ١١٢/٢ .

٢٣. يوم القادسية سنة ١٦هـ بين العرب بقيادة سعد بن أبي وقاص والفرس والقادسية أربعة أيام الأول يوم أرماث والثاني يوم أغواث والثالث يـــوم عماس وليلة اليوم الرابع ليلة الهرير ، وسمّوه يوم القادسية وكان الفتح للمسلمين وقُتل رستم جازويه ولم تقُم بعده للفرس قائمة . ينظر الطبري ٤٨٠/٣ ، فتوح البلدان ٢٦٢ معجم البلـــدان ٤-٢٩١ ، شـــعر الفتـــوح الإسلامية ١٩٠ ، العصر الإسلامي ٦٢ .

٢٤. معجم البلدان ٢٩١/٤ ، فتوح البلدان ٢٦٢ شعر الفتوح الإسلامية ١٩٠. العصر الإسلامي ٦٢ .

٢٥. وفي الافتتاح بالحنين في شعر الجهاد ورثاء النفس نص لمالك بن الريب في الفتوحات الإسلامية (شعراء أمويون ٤١/١) وقد ذكره يـــاقوت فـــي معجم البلدان في جغرافية الفضا ٢٠٥/٤ ومطلع النص :

الا ليت شعري هل أبيتنّ ليلـــــةً بجنب الفضا أزجي القلاص النواجيـــا

٢٦. ينظر دراسة في (شعر الفتوح الإسلامية) للنعمان عبد المتعـــال القاضـــي أغراضه ، أساليبه ، شعراؤه ، العصر الإسلامي ٦٢ .

٢٧. المدائن بليدة شبيهة بالقرية بينها وبين بغداد ستة فراسخ وأهلها فلاحون يزرعون ويحصدون ينظر معجم البلدان ٧٥/٥ .

٢٨. معجم البلدان ٧٥/٥ (المدائن) شعر عبدة بن الطبيب ص٧٥ ، ٥٨ تاريخ الطبري ٤١٢/٣ يورد الخبر والنص مع خلاف ، شعر الفتوح الإســـلامية